

مظاهر التمييز العنصري ضد المهاجرين إلى أوروبا

مقاربة موضوعاتية

رواية "كيف ترضع الذئبة دون أن تعضك" لعمارة لخوص نموذجاً

**Forms of Racial Discrimination against Emigrants to Europe:
Approach Thematic****The case of Amara Lakhous's Novel "How to Suckle a Wolf, Unbitten"**

أ.د معاندي عبلة

جامعة عبد الرحمن ميرة بجاية، الجزائر،

مخبر التأويل وتحليل الخطاب

abla.maandi@univ-bejaia.dz

تاريخ القبول: ٢٠٢٤/١٠/٢٢ النشر ٢٠٢٥/٠٦/٠٢

ط.د بن مقيدش صلاح الدين *

جامعة عبد الرحمن ميرة بجاية، الجزائر،

مخبر التأويل وتحليل الخطاب

Salaheddine.benmekideche@univ-bejaia.dz

تاريخ الاستلام: ٢٠٢٤/٠٢/١١

ملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى رصد مظاهر التمييز العنصري الذي يتعرض له المهاجرون من دول العالم الثالث إلى أوروبا في رواية "كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك" للكاتب الجزائري عمارة لخوص، وتصوير أشكال التفرقة والتمييز الممارس ضدهم، والرواية هي مثال شاهد على النظرة الإقصائية والإمبريالية التي تنتهجها القوى الغربية تجاه مستعمراتها. وباعتماد منهجي الوصف والتحليل، وبعد تقديم مفاهيم موجزة عن التمييز العنصري (العنصرية) وخطره على الإنسانية، ثم تحليل مظاهره ضد المهاجرين في الرواية، خلصت الدراسة إلى أنّ رواية "كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك"، كشفت عن أشكال صادمة من العنصرية التي يعانيها المهاجرون، ومنها الإهانة والطرده، وحرمانهم من العمل وكثيراً من الحقوق الأخرى، وهذا ما اضطّرهم إلى انتهاز أساليب مقاومتها، كالعامل على إتقان اللغة الإيطالية، وتجنّب الاسم العربي. كما أنّ الرواية هي مؤشر على أنّ التفرقة العنصرية والعرقية مرض حضاري عضال يهدّد الغرب في علاقته بنفسه وعلاقته بغيره.

الكلمات المفتاحية: عنصرية؛ مهاجرون؛ أوروبا؛ رواية؛ عمارة لخوص.

Abstract :

This study aims at examining manifestations of racial segregation Third-World emigrants encounter in European countries, precisely in "How to Suckle a Wolf, Unbitten" by Algerian writer, Amara Lakhous. The study equally seeks to portray the forms of disparity and marginalisation these migrants are subjected to. The novel represents a vivid illustration of the discriminatory and imperialistic perspective adopted by the ex-colonizer on the ex-colonized.

Deploying a descriptive, analytical paradigm found suiting the nature of the subject matter, and supplying with operational definitions to racial discrimination, alongside its forms and threat to humanity, the study reveals racist features in the Western Society. It concludes that "How to Suckle a Wolf, Unbitten", unveils

staggering forms of racism endured by emigrants, including mortification, exclusion and deprivation of employment. These circumstances compel emigrants to acculturate via learning Italian or westernising Arabic names. Furthermore, the novel epitomises an indicator that racial and ethnic discrimination is a severe societal problem that jeopardises the Western intra and inter diplomatic relations.

KeyWords: racial discrimination ; emigrants ; Europe ; novel ; Amara Lakhous

*المؤلف المرسل

المقدمة:

لا شك أنّ النسيج الاجتماعي يتأسس من خلال العمل على الوحدة والمساواة، وتكافؤ الفرص على جميع الأصعدة والميادين. كما أنّ التعايش الإنساني تحكمه قيود عرقية، وأيضاً موافق وبنود رسمية بين الدول تجيز الهجرة والاعتراق، وتكفل الحقوق المتعلقة بذلك، بل تحرم وتجزم جميع أشكال العنصرية والهمجية والتهميش ضد الآخر مهما كان جنسه وعرقه، ومجتمعه الأصلي وديانته. وكلما خرجت أساليب معاملة المهاجر والمغترب عن هذه المبادئ إلى إقصائه وتمييز غيره بغير وجه حق، كلما اعتبر ذلك عنصرية وحرقة لمبدأ التعايش والتسامح، وبالتالي الوقوع في جريمة ضد الإنسانية. غير أنّ الملاحظ عن المجتمع الأوروبي الغربي من خلال التاريخ والواقع، ونظراً للأمبريالية وعدائه للإسلام ولدول العالم الثالث، أنّه يمارس سياسة عنصرية وإقصاء للمغتربين والمهاجرين. وإذا كانت الدراسات التاريخية حول الاستعمار والدراسات الاجتماعية والنفسية حول عنصرية العالم الغربي تثبت ذلك، فإنّ النصوص الأدبية تعدّ أيضاً شاهداً على الظاهرة من خلال تصوير أشكالها وأصنافها؛ خاصة الأجناس السردية؛ بل ربما تكشف الروايات هذا الواقع بما لا تكشفه دراسات كثيرة؛ وهذا نتيجة أنّ الرواية من أكثر الأجناس الأدبية وصفاً لحياة المهاجرين والتحديات التي تواجههم في المهجر.

في هذا السياق، يتأسس موضوع ورقتنا البحثية رصد المظاهر العنصرية التي يصورها العمل الروائي، والتهميش الذي يعاني منه المهاجرون إلى أوروبا أو المغتربون فيها خاصة العرب منهم؛ وكيفية تعاملهم معها تبعاً لما يجدونه من مشاكل ومعاناة جراء التمييز ورفض الآخر وصعوبة التعايش معه. وقد اخترنا رواية "كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك" للروائي والأديب الجزائري عمارة لخص نموذجاً للدراسة؛ إذ كتب جلّ رواياته خارج الوطن، وتحديدًا في إيطاليا التي هاجر إليها منذ سنة ١٩٩٥. ومنه نتساءل، كيف تجلّت مظاهر هذا التمييز؟ وما سبب التفرقة العنصرية التي يمارسها الأوروبيون تجاه المهاجرين والمغتربين من دول العالم الثالث؟ وما أساليب المواجهة التي تساعد المهاجرين على الاندماج وتحقيق التعايش مع الآخر؟

هذا ما نحاول اكتشافه من خلال قراءتنا لمضمون الرواية، وتسليط الضوء على المعاناة والمشاكل التي تعترض المهاجرين خارج أوطانهم، وبالضبط في أوروبا؛ أين تزداد صور التهميش والإقصاء التي يتبناها الفكر الغربي ضدهم خصوصاً المسلمين منهم. ومنهجنا في ذلك بين الوصف لتلك المظاهر والمجتمع الغربي، وبين التحليل السيميائي لبعض أحداث وشخصيات الرواية ذات الصلة بالموضوع.

I. مفهوم العنصرية وأصنافها وخطرها على الإنسانية:

١. مفهوم وأسباب العنصرية:

تطرق العديد من المفكرين والحقوقيين والفلاسفة حول العالم إلى مسألة العنصرية أو التمييز العنصري بين البشر، والذي عُرف منذ زمن طويل، وذلك نتيجة العُقد التاريخية التي صنعتها أمم ومجتمعات إمبريالية عبر الممارسات السياسية الخاطئة. وقد أرادت من خلالها فرض السيطرة على الشعوب المهضومة والضعيفة، وتمزيق نسيجها الاجتماعي، خاصة أثناء وبعد الحربين العالميتين.

وتُعرف العنصرية بأنها "نوع من الاستعلاء النابع من شعور فئة بأنها عنصر سيد، ثم ترجمة هذا الشعور إلى واقع سياسي واجتماعي واقتصادي" (عاشور، ١٩٨٦، صفحة ١٢). وينطبق هذا الوصف على الدول الاستعمارية من خلال نفوذها وسيطرتها على الشعوب المستعمرة؛ حيث ترسخت العنصرية الغربية في نفوس معتنييها، واتخذت تزييفا قانونيا عن طريق "تشريع المستعمر أو الفئة الغالبة صاحبة النفوذ والسلطان لقوانين مختلفة يحاولون بها أن يثبتوا تفوقهم الجنسي والحضاري على سكان الأجزاء التي يحتلوها" (عاشور، ١٩٨٦، صفحة ١٢). ووقع هذا أثناء وبعد الحرب العالمية الأولى والثانية. وكانت الحركة النازية من أكثر الأمثلة فداحة على تقنين الفصل والتمييز ضد المواطنين من منطلق تفوق الجنس الآري على غيره من الأجناس.

يتبين من خلال هذه النظرة، أنّ التمييز العنصري أساسه العرق واللون والجنس، وهذا انطلاقا من الاعتقاد الراسخ بوجود تعارضات تراتبية وفروق جوهرية بين الشعوب والمجتمعات تبعا للون البشرة، الانتماء الديني، الأصل العرقي والتباين الثقافي. وفي التاريخ الغربي الحديث أمثلة كثيرة بشأن ما بات يعرف بالعنصرية البيضاء؛ أيّ ما فعلته ألمانيا النازية ضدّ مستعمراتها، وأيضا العدوان الأمريكي على اليابان أثناء الحرب العالمية الثانية.

وتتعدد أشكال العنصرية بتعدد مظهراتها في المجتمعات وأشكال تجليها، ويعتقد في هذا الصدد "بعض العلماء أنّ التمييز العنصري أوسع من التفرقة العنصرية؛ إذ قالوا إنّ التمييز العنصري، هو تفریق أو استثناء أو تغيير وتفضيل مبني على الجنس أو اللون أو النسب أو الأصل القومي، أو العرق أو الدين أو اللغة، وترمي كلّها إلى إضعاف الاعتراف بالحقوق الإنسانية والحريات السياسية والاستمتاع بها وممارستها في حقول السياسة والاقتصاد والاجتماع والثقافة" (عاشور، ١٩٨٦، صفحة ١٥).

وما نراه اليوم في عالمنا المعاصر، أنّ التفرقة في معاملة الناس قائمة على أساس اللون والعرق والقومية، لذلك نتج عنها العداء، وتحوّلت إلى حروب. ولعلّ خير شاهد على ذلك، ما وقع بين السود والبيض في جنوب إفريقيا وأمريكا منذ أواخر القرن الماضي، والحرب المعلنة بطريقة مباشرة أو غير مباشرة فيها على أصحاب البشرة السوداء، وهي حرب خفية ما تزال مستمرة إلى يومنا هذا. وكذلك الممارسات الصهيونية العدائية ضد الفلسطينيين نتيجة عوامل إيديولوجية وعقائدية وثقافية، وأيضا العنصرية المقيتة التي تمارسها أمريكا والمجتمعات الغربية ضد بلدان الشرق الأوسط والعرب المسلمين بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١.

وقد تكون العنصرية بين أبناء الجنس البشري دون سبب سوى كونهم بشرا، وهذا ما أشار إليه مفتحي المسكني: "لا يمكن أن توجد عنصرية بين البشر إلا لكونهم بشرا، وليس لأيّ سبب آخر، ونعني بذلك أنّ العنصرية هي ضرب

من سياسة الجنس البشري تجاه نفسه، ونحن لا نحتقر إلا ما يشبهنا، أو هو من جنسنا، الجماد والنبات والحيوان هي كائنات توجد خارج إمكانية العنصرية" (المسكيني، ٢٠١٦، صفحة ٧٢). ويعني هذا أنّ العنصرية مصطلح وممارسة استحدثها الجنس البشري، ولا يمكن الموازنة بين الأشياء إلا إذا كانت تشبه بعضها البعض؛ فلون البشرة والعرق، واللغة والدين والانتماء، من خصائص الجنس البشري، لهذا لا يمكن أن تكون العنصرية والتفرقة بين الكائنات الأخرى كالنبات والحيوان والجماد رغم تشابهها في الشكل واللون.

ومن شناعة العنصرية أن نكره إنسانا لأنّ بشرته سوداء، أو لونه أبيض، أو أنّ كلامه غريبا عن كلامنا، أو أنّه يدين بدين غير ديننا، ويعتقد ما ليس من عاداتنا وأعرافنا؛ فالعنصرية بهذه المبررات، منافية لحقوق الإنسان الطبيعية، ولجميع القواعد الدينية والأخلاقية التي تربط بني البشر. وباختصار، فالعنصرية تزييف لحقيقة الطبيعة البشرية، "فلا يمكن لأحد أن يخترع عنصرا وجوديا يفصله عن بقية الإنسانية، أن يخترع جنسا لجسمه، أو إله إيمانه، أو شعبا لانتمائه، أو لغة لكلامه" (المسكيني، ٢٠١٦، صفحة ٧٢) (المسكيني، ٢٠١٦، صفحة ٧٢). وما دام اللون والجنس والدين والقومية واللغة ليس من اختياراتنا، وهي نتيجة حتمية جُبل عليه الإنسان منذ ولادته، وهي مظاهر خارجية فقط، فلماذا التفاضل بمنّ إذن؟ ومنه تنشأ العنصرية نتيجة عقد نفسية يعيشها إنسان ضد كائن مثله، أو ضد نفسه أحيانا.

٢. مفهوم العنف:

يعد العنف ظاهرة اجتماعية وسلوك إنساني ليس مرهونا بمجتمع معين ولم يسلم منه أي شعب من الشعوب، فهو آفة منتشرة في كل الأمم والمجتمعات منذ أن خلق الحياة وعناصرها. يأخذ العنف أبعاد اجتماعية ونفسية وسياسية، حيث يعرفه محمد عاطف بقوله "تعبير صارم عن القسوة التي تمارس إجبار الفرد أو الجماعة على القيام بعمل من الأعمال المحددة يريدها الفرد أو جماعة أخرى، حيث يعبر العنف عن القوة الظاهرة التي تتخذ أسلوبا فيزيقيا مثال ذلك الضرب أو يأخذ شكل الضغط الاجتماعي" (محمد عاطف، دت ص ٢٥٩) فمن خلال هذا المفهوم يتبين لنا أن العنف من المنظور الاجتماعي هو أيّ فعل يمارس بالقوة والاضطهاد ويلحق الأذى بالفرد خاصة وبالجماعة عموما، من أجل تحقيق أغراض غير اجتماعية ولا أخلاقية.

أما من الناحية النفسية فيرى المختصون أن العنف استجابة سلوكية تظهر في شكل ممارسة القوة فوق إرادة الآخرين من أجل زرع الخوف والفرع والرعب في نفسية الآخرين

كما "يعبر عن سلوك عدواني في جزئه السلبي الذي ينتج عن حالة إحباط تكون مصحوبة بعلامات التأثر والغضب، ويظهر على شكل سلوكات الغرض منها إلحاق الأذى والضرر بالآخرين، سواء من الناحية المادية أو المعنوية وذو طبيعة عاطفية وغريزية" (عبد الكريم قرشي، ٢٠٠٣، ص ١٣) وبهذا يقتزن العنف بالقوة والإكراه وعدم تكافؤ مواطن القوى بين الفاعل والقائم بالعنف والمفعول فيه.

ويتخذ العنف أشكالاً كالعنف السياسي الذي يعد ظاهرة عالمية تعرفها كل المجتمعات وبدرجات متفاوتة، وهناك العنف الاجتماعي الذي سبقت الإشارة إليه، وتندرج تحته أشكال أخرى كالعنف الأسري والمدرسي والعنف الجسدي والمعنوي، وكلها أشكال تبرز خطورة هذه الآفة على الفرد والمجتمع.

٣. مظاهر التمييز العنصري ورفض إنسان اليوم للتعايش والتسامح:

يعيش الإنسان في محيط متشابك من العلاقات الاجتماعية، وهذا ما يحتم الالتزام والتمسك بالأخلاق السامية والقيم الراقية كالتسامح والتعايش مع الغير، ومن خلالها يحافظ على كيانه ووجوده. والمرء لا يمكن أن يعيش حياته اليومية بمفرده وبمعزل عن غيره، بل لا يمكن تصور ذلك أبداً، فهو في حاجة دائمة وماسة للآخرين؛ إذ "التعايش في جوهره، نوع عميق من الأخوة بين البشر؛ أي هو محض علاقة مع "وجه الغير"، ليس بوصفه شيئاً يضاف إلينا من خارج؛ بل باعتبار علاقة تشكلنا من الداخل" (عاشور، ١٩٨٦، صفحة ٤٣).

ويكون التعايش مع الآخر شعوراً عميقاً وإحساساً رقيقاً في أنفسنا وذواتنا، وليس مجرد علاقة شكلية خارجية فقط، مع الإدراك أنّ الآخر له الحق في التعايش والاحترام والتقدير. ولا يتحقق التعايش إلا إذا سادت المحبة والأخوة، والتحلي بالتسامح كمبدأ إنساني وأساسي من خلال القدرة على العفو عن الآخرين مهما كانت جنسياتهم وأصولهم، "ويكون فاعلو التسامح أفراداً أو منظمات أو حكومات، وقد ينفر الفرد بقوة من المستهترين والسحاقيات، أو أعضاء الأديان والأعراق الأخرى، وتكون له القدرة إذا ما أرادوا أو أرادت ممارستها على أن يتفاداهم أو يسخر منهم، أو يستنكر عليهم، فيكمن التسامح في عدم ممارسة هذه القوة" (طوني بينيت وآخرون، ٢٠١٠، صفحة ١٨١).

وإنّ أيّ تشنج في التعايش وممارسة التشدد والتعصب يتحوّل إلى عنصرية، وهو ما نعيشه في هذا العصر من إحياء الأفكار التي كانت سائدة قديماً ولا يزال صداها إلى اليوم، وهي تدعو للفرقة العنصرية على أساس اللون أو العرق أو الانتماء، وكلها مظاهر تزيد من هشيم العنصرية، وتؤجج من استفحالها في تشرّد الشعوب والمجتمعات.

وإذا كانت مصادر ومبررات العنصرية تقوم - كما رأينا - على السلوك العدواني للذات الإنسانية من الكره والحقد، فإنّ القضاء عليها والحدّ منها يصعب بالقوانين والخطابات السياسية فحسب، خاصة أنّها مستشرية أكثر لدى المجتمع الغربي الأمبريالي وما يملكه من سيطرة ومركزية سنّ القوانين الدولية، ومنه يجب التصدي لها بأساليب أخرى تدعو للتسامح والتعايش تحت راية الأخوة والدين والإنسانية؛ إذ "ينبغي بسط التسامح حتى مع المتشددين غير المتسامحين، وما دام التسامح قيمة مهمة، فيجب بسطه على الجميع، وتكمن الروح الحقيقية الوحيدة للتسامح في تسامح ضمائرنا مع كلّ تشدد للآخرين" (طوني بينيت وآخرون، ٢٠١٠، صفحة ١٨٣). ولا شك أنّ من أساليب نبذ العنصرية التي تسهم في توعية المجتمعات والتصدي لمظاهر التمييز والفرقة والإقصاء، تلك الكتابات الروائية التي تصوّر بشاعة العنصرية، وترسخ قيماً نبيلة تجاهها من التسامح والحلم والتّصالح.

II. تجليات التمييز العنصري في رواية "كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك":

١. ملخص مضمون الرواية:

تعالج رواية "كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك" لعمارة لخصوص موضوع الهجرة ومشاكل المهاجرين من مختلف الجنسيات في العاصمة روما، حيث تدور أحداث الرواية في عمارة لسيدة إيطالية في بساحة فينتوريو وسط العاصمة. وقد ارتكبت فيها جريمة قتل أحد الإيطاليين الملقب 'بالغلادياتور'، ومنها بدأت أحداث الرواية في مشاهد بوليسية للبحث عن هوية القاتل، معتقدين أنه من أولئك المهاجرين الذين قدموا من مختلف دول العالم الثالث "الجزائر، بنغلادش، البيرو، ألبانيا، إيران، تونس"، والتي هي بلدان يشاع عن الإرهاب والعنف. واللافت للانتباه أن أصابع الاتهام كانت صوب المهاجر الجزائري 'أحمد السالمي' الملقب ب'أميديو'؛ لأنه كان غائبا أثناء وقوع الجريمة. غير أن إتقانه للغة الإيطالية ودرايته الكبيرة بتاريخ روما ومعالمها وحسن معاملته مع الإيطاليين، سهل له عملية الاندماج والتعايش مع المجتمع الإيطالي، واعتبر أحد المواطنين الإيطاليين الأصليين.

كما تعالج أحداث الرواية ثنائية الأنا والآخر، والصراع القائم بين المهاجرين والإيطاليين حول مسائل ثقافية وعقائدية تتعلق بالهوية والهجرة غير الشرعية، بالإضافة إلى العلاقة المتوترة التي تربط الأوربيين بالعرب المسلمين، والتي زادت حدتها غداة أحداث سبتمبر ٢٠٠١، لذا جمع عمارة لخصوص شخصيات الرواية بين مختلف الجنسيات والأعراق في رسالة أراد من خلالها أن يفتح العالم على الحوار بين الثقافات والأديان، وتغيير مصطلح صراع الحضارات إلى التلاحق الثقافي والهوياتي بين شعوب العالم. وهذا ما جسده شخصيات الرواية. وعموما، فقد تطرق الروائي عمارة لخصوص في روايته لحياة المهاجرين من مختلف الهويات الثقافية في العاصمة الإيطالية "روما"، حيث رسم لنا أزمة الهوية الثقافية والدينية والاجتماعية، والتمييز العنصري الذي يتعرضون له.

٢. أشكال التمييز العنصري من خلال شخصيات الرواية:

جسدت رواية "كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك" ما يتعرض له المهاجرون في أوروبا من أشكال التمييز العنصري، وذلك لاعتبارات هوياتية وثقافية وعرقية؛ حيث حملت معها صراع الأنا "المهاجر" مع الآخر "الإيطالي"، وبلغت حدًا خطيرا من الإهانة والسخرية. واللافت للانتباه، أن التمييز العنصري في إيطاليا لم يكن اتجاه المهاجرين فقط، بل كان أيضا بين الإيطاليين أنفسهم "الجنوب والشمال"، وهذا يؤكد النزعة العنصرية التي تعيشها إيطاليا إلى غاية اليوم، ومن الشخصيات الروائية التي عانت من هذا التمييز العنصري، نذكر ما يأتي:

أ- بارويز منصور صمدي:

عاش هذا المهاجر معاناة كبيرة أثناء وجوده في إيطاليا، حيث تعرض للمعاملة العنصرية من طرف الإيطاليين والإهانة والسخرية، فأتى بحته عن العمل في العاصمة روما، كان يقابل بالرفض المطلق، لأنه لا يتحدث اللغة المحلية، "أنت لا تعرف الإيطالية، أو عليك أن تحسن لغتك أولا، أو آسف مستواك اللغوي منخفض جدا، عادة ما أسمع هذه الكلمات المهينة عندما أبحث عن العمل في المطاعم قبل أن أرمى في المطبخ لغسل الصحون!" (لخصوص، ٢٠٠٦، الصفحات ١٢-١٣). فعدم إتقان بارويز للغة الإيطالية، سبب له الكثير من المشاكل، وحرمه من العمل، رغم أن مستواه اللغوي يتقارب مع مستوى بعض الإيطاليين على حد تعبيره، لكن المعاملة مختلفة تماما لأسباب ثقافية وعرقية بحتة.

وفي موقف آخر، تعرض 'بارويز' للكثير من الإهانة من "الغلادياتور" الذي يُكن عداء كبيرا للمهاجرين، معتبرا إياهم أجنب لا يحقّ لهم الكلام، ولا يحقّ لهم العمل، يقول بارويز عن براءة صديقه 'أميديو' من مقتل الإيطالي: "ما علاقة أميديو بذلك المنحرف المقتول الذي يبول في المصعد؟ رأيته بعيني يبول في المصعد، قلت له: هذا المصعد ليس مرحاضا عموما، نظر إليّ بوقاحة قائلا: لو قلت هذا الكلام مرة أخرى فإني سأبول في فمك! أنت في بيتي، لا حق لك في الكلام! هل فهمت أيها الأجنبي الحقير؟ ثم أخذ يصرخ في وجهي: إيطاليا للإيطاليين! إيطاليا للإيطاليين" (لخوص، ٢٠٠٦، صفحة ٢٢). يظهر لنا هذا المقطع السردى مدى الرفض الذي يجابه به الآخر الأجنبي بالذنب الوهمي، اختلاف الجنس والعرق والدين، وهذا ما خصّته عبارة "إيطاليا للإيطاليين".

رجع بنا الروائي من خلال شخصية 'بارويز' إلى الحروب الأولى التي شهدتها العالم يوم كانت الشعارات السياسية هي المنذر الأول لشرارة الفتنة: "أمريكا للأمريكيين"، "إفريقيا للإفريقيين". وقد أدت إلى صدام الحضارات والشعوب، وخلفت خسائر مادية وبشرية كبيرة. كما يفصح هذا الشعار العنصري مدى تجذر دعاية النقاء الثقافي والهوياتي في المجتمع الغربي عموما، وهي تقوم على الاعتقاد بأنّ الثقافة الغربية هي الوحيدة التي لها هوية نقية وحضارية، أما الثقافات الأخرى، فهي ثقافات بدائية مهجنة وغير حضارية، لذا كانت نظرة الأوربيين للأجانب نظرة احتقار وازدراء، وهذا ما كشفته رواية عمارة لخص مع المهاجرين.

ولم تتوقف مواقف العنصرية على 'بارويز' عند الأشخاص العاديين فقط، بل امتدت إلى السلطات المحلية (القانونية)، والمتمثلة في الشرطة الحكومية؛ حيث تعرّض للإهانة والمعاملة السيئة حين رمى القمح للحمام المنتشر في الساحة الكبيرة لروما "ساحة سانتاماريا ماجوري"، والتي ترتادها الطيور بقوة، وقد أصبحت منظرا سياحيا يجلب السياح بكثرة لأخذ الصور فيها: "لقد عاملوني معاملة سيئة دون أن أقترف أي ذنب، بل ذهبوا إلى حد إهانتي بقولهم: تريد أن تحول روما الجميلة إلى مزيلة؟ اذهب إلى بلدك وافعل ما شئت!" (لخوص، ٢٠٠٦، صفحة ٢٤). وفي هذا دلالة واضحة على رفض الإيطاليين لفكرة التعايش مع الآخر من مختلف الأجناس غير الأوروبية.

وفي موقف آخر، يصف لنا 'بارويز' العنصرية الحادة التي تبديها السيدة العجوز بوابة العمارة: "دعنا من سوء المعاملة التي ألقاها من الشرطة، فلنتكلم عن البوابة بندتا التي لا تكف عن تسليط لسانها القبيح وإسماعي ما لا أرغب، قلت لها ذات مرة بعد أن ضاق صدري ونفذ صبري: عيب عليك وأنت في هذا السن أن تقولي "وايو"، لكنها استمرت في مناداتي دون حياء "وايو"؛ أي كاتسو إهانات هذه الملعونة ليس لها أول ولا آخر، ذات مرة سألتني هل تأكلون لحم الكلاب والقطط في ألبانيا؟ تحكمت في أعصابي بمشقة وقلت لها: هل تعرفين عمر الخيام؟ هل تعرفين سعدي؟ هل تعرفين حافظ؟ لسنا متوحشين حتى نأكل القطط والكلاب؟ ثم ما علاقتي بألبانيا" (لخوص، ٢٠٠٦، صفحة ٢٥).

نلاحظ من كلام 'بندتا' الكثير من الألفاظ العدائية والنظرة الازدرائية والعنصرية اتجاه المهاجرين. كما أنّ "الإشارة إلى عمر الخيام وحافظ الشيرازي تهدف إلى تصحيح الصورة المشوهة التي تحملها هذه السيدة الإيطالية عن الثقافة الشرقية، وإبرازها في صورة مشعة بالفن الراقي وبالأدب الإنساني الذي لا يقل جمالا عن آداب أوروبا، بل هي

إشارة ذكية إلى أن أوروبا ذاتها ما كان لها أن تتجدد إبداعيا وإنسانيا لولا أنها تأثرت بالأدب الشرقي، ويكفي أن شاعر ألمانيا الأعظم 'غوته' كان من أشدّ الأدباء الأوروبيين إعجابا بالأدب الشرقية وتحديدًا بالأدب الفارسي، وكان يجد في شعر "حافظ الشيرازي" مصدرا لا ينضب للحداثة الأدبية" (بن علي، ٢٠١٥، صفحة ١٧٤). وهذا ما يجمله الغربيون اليوم، فجّلّ الفنون والآداب الغربية كان مصدرها الثقافة الشرقية.

ب- شخصية إقبال أمير الله:

لم تتوقف العبارات العنصرية عند 'بارويز' المهاجر الإيراني؛ بل تعدّت إلى بقية المهاجرين، حيث لا توقف بوابة العمارة "بندتا" عن عبارات التحقير والتمييز العنصري ضد المهاجرين. يروي لنا "إقبال أمير الله" المهاجر من بنغلاديش ما يتعرض له من السيدة الإيطالية 'بندتا' قائلا: "البوابة بندتا تكرهني لا سبب ولا ترد على تحيتي بل تتعمد إهانتي عندما تناديني "يا باكستاني" قتلها مرارا: أنا من بنغلاديش ولا علاقة لي بباكستان، بل أنا أكره الباكستانيين كرها لا حدود لها" (لخوص، ٢٠٠٦، صفحة ٤٩). والملاحظ أنّ بوابة العمارة تتعمد إهانة المهاجرين باختلاق بلدان أخرى لاتنمأ أتهم؛ إذ تنادي بارويز الإيراني بالألباني، وإقبال من بنغلاديش بالباكستاني المهاجرة كريستينا من البيرو تناديهما بالفيلينية، وفي هذا إشارة ولمز عن التخلف التي تقع فيه بلدان العالم الثالث، وأيضا الصراعات السياسية التي قامت فيها كما حدث بين بنغلاديش وباكستان.

من جهة أخرى، تطالب البوابة الإيطالية من السلطات المحلية في روما الرّج بمؤلّاء المهاجرين في السجن: "لماذا لا يزجون بإقبال والألباني وبقية المهاجرين المنحرفين في السجون أو يطردوهم من هذا البلد؟... لا يزال الكثير من الناس في إفريقيا والبرازيل ومناطق أخرى من العالم يقتاتون من المزابل العمومية... أنا متأكدة من أن قاتل الشاب لورانزو ما نفريدي هو واحد من المهاجرين" (لخوص، ٢٠٠٦، الصفحات ٣٩-٤٠).

فهذه الصورة السلبية لا تزال عالقة بعقول الأوروبيين إلى غاية اليوم؛ حيث يرى المجتمع الغربي أنّ المهاجرين من إفريقيا وأمريكا الجنوبية الذين يعيشون في مختلف الدول الأوروبية، قد أجبرهم الجوع والفقر على الهجرة، لذا تزداد حدّة الإهانة وسبّهم وشتمهم. فمثلا في مباريات كرة القدم اليوم بإيطاليا، تصل عبارات العنصرية إلى حدّ رمي حبات الموز على اللاعبين الأفارقة وأمريكا والجنوبية، كما يقلّد بعضهم أصوات القردة إشارة إلى لون البشرة السوداء. وإنّ هذا لدليل صريح على شناعة التمييز العنصري ورفض الآخر المهاجر؛ إذ "هي صور تختزل الآخر في مجموعة من القيم السلبية تجعل منه ذاتا غائبة عن الفعل التاريخي والحضاري، وهي أقرب إلى مرافعات أخلاقية في حقه تدينه بسبب اختلافه، وكأنّ الاختلاف جريمة" (بن علي، ٢٠١٥، صفحة ١٧٢)، رغم ادعاء أوروبا بالحضارة والحرية والديمقراطية التي لم نر لها أثرا في الواقع.

ويتجلى رفض الأوروبيي للأنما المهاجر في رفض عاداته وتقاليده ومظاهر هويته، حتى بات السبيل الوحيد للاندماج في المجتمع الغربي هو الانسلاخ عنها مقابل الحصول على تأشيرة القبول والتعايش مع المحيط الجديد. ومن مظاهر الاستهجان ورفض الثقافة الشرقية، ما ورد على لسان السيدة الإيطالية زوجة "أميديو" ستيفانا ستارو "عما تشاهده بخصوص يوميات المهاجرين من بنغلاديش: "الرجال منغلّقون بشكل فضيع، كأنهم يعيشون في دكا، يأكلون

الأرز ويلبسون اللباس البنغالي ويشاهدون الأفلام البنغالية على أشرطة الفيديو، غالبا ما أتساءل: هل يعيشون حقا في روما؟" (لخوص، ٢٠٠٦، صفحة ١٢٤).

من خلال ذلك المشهد السردى، يتبين رفض تعايش الإيطاليين مع الأجانب، بسبب تمسكهم بهويتهم الثقافية في الأكل واللباس وغير ذلك. كما نستنتج النظرة الاستعلائية والمركزية والغربية ضد المهاجرين من دول العالم الثالث، وهذا ما عبّر عنه سؤال السيدة 'ستيفانا' "هل حقا يعيشون في روما"، معتبرة أنّ العاصمة الإيطالية، هي بلد الثقافة النقية التي لا تقبل بالتقاليد الشرقية البالية، وبالتالي يظهر لنا من سؤال السيدة، الرفض الصريح والمطلق للتنوع والتعدد الثقافي بين الشعوب والمجتمعات، خاصة بين الشرق والغرب، "فعندما يصبح الاختلاف الثقافي ذريعة للتعصب العنصري ولنزعة التفوق والامتياز العرقى الذي ينشر فكرة عدم التكافؤ والمساواة بين الثقافات البشرية، يكتسي المشكل طابعا آخر، وتنجم عنه إسقاطات أخلاقية وسياسية وأنواعا من السلوك المادي والمحتقر لثقافة الغير، وهنا يصبح السؤال المخرج عن العلاقة بين الاختلاف الثقافي وتعدد الأجناس والسلالات البشرية سؤالاً ملحا" (الداوي، ١٩٩٢، الصفحات ٩٥-٩٦).

٣. فكرة التمييز العنصري بين المجتمع الغربي نفسه في الرواية:

أشار عمارة لخص في روايته إلى مفارقة عجيبة أنّ الصراع الهوياتي وعدم تقبل الآخر، لم يكن من الإيطاليين اتجاه المهاجرين فقط، بل تعدى ذلك إلى التمييز بين الإيطاليين أنفسهم، (سكان الجنوب وسكان الشمال). وهذه الظاهرة غفل عنها الكثير من الروائيين الغربيين في خطاباتهم الثقافية، وهنا سؤال يطرح نفسه: إذا كان الأوروبي الإيطالي لا يقبل ذاته وأفراد مجتمعه، فكيف يقبل الآخر "المهاجر" الذي يعيش معه؟

ومن صور التمييز بين الإيطاليين أنفسهم، النظرة العنصرية التي يجسدها سكان شمال إيطاليا ضد جنوبها، فعلى لسان الأستاذ الجامعي "أنطونيو ماريني" تظهر لنا الكثير من الصراعات بين أبناء الشمال والجنوب، كالضرائب وتجارة المافيا والمخدرات: "أليست روما هي الذئبة! أنا لا أثق أبدا في أبناء الذئبة لأنهم حيوانات مفترسة متوحشة، إنّ الحيلة الخبيثة هي وسيلتهم المفضلة في استغلال الآخرين! هكذا أهل الشمال يعملون وينتجون ويدفعون الضرائب، وأهل الجنوب يستغلون هذه الأموال في إنشاء العصابات الإجرامية مثل المافيا في صقلية ولا كامورا في نابولي ولا ندرافتا في كالابريا وعصابات الاختطاف في سردينيا... أنصح تلاميذي دوما بقراءة كتاب كارلو لينفي الرائع "المسيح توقف في إيبولي" لفهم حقيقة الجنوب القائم على الكسل والتخلف" (لخوص، ٢٠٠٦، صفحة ٨٥).

من خلال هذا المشهد السردى للأستاذ الجامعي، نستكشف العلاقة بين سكان الشمال (العاصمة روما وما جاورها) وسكان الجنوب (مدينة نابولي وما جاورها)؛ حيث صور لنا أنّ سكان الشمال يعتقدون أنفسهم شعبا مثقفا وواعيا وحضاريا، في حين أهل الجنوب لا يزالون تحت وطأة التخلف والجهل والفقر والكسل رغم أنهم قدموا للعيش في العاصمة روما، فهذا لم يزددهم إلا تخلفا مكررا.

وفي موقف آخر، يظهر اندهاش وتعجب الأستاذ "أنطونيو ماريني" الذي ينحدر من مدينة 'ميلانو' من كون 'أميديو' من سكان الجنوب، رغم أنه شاب مثقف وواع يتقن عدة لغات "أميديو مهاجرا! بالنسبة لي لا فرق بين

المهاجرين وأهل الجنوب، لا أفهم علاقة أميديو بالجنوب، أنا ملاحظ متمرس بإمكانني التمييز بين الكسول والمجتهد، مثل البوابة النابوليتانية وساندرو دنديني والزاييتافاياني، هم رموز الجنوب المتمثلة في الكسل والثروة والتخلف، والنميمة والإيمان بالشعوذة والبربرية... عندما أخبرني البوابة أن أميديو من الجنوب، لم أصدق لأنّ طريقته في الكلام والتحية والمشي أشبه بطريقة أهل ميلانو أو طورينو" (لخوص، ٢٠٠٦، الصفحات ٨٥-٨٦).

يظهر لنا هذا المقطع الوصفي أنّ أشكال التمييز العنصري التي يمارسها سكان الشمال ضد الجنوب هي نفسها التي تمارس ضد الشرق والمهاجرين، وهذا مؤشر دلالي يثبت أنّ سكان الشمال الإيطالي يرفضون التلاحق الثقافي وسياسة التعايش مع الآخر؛ حيث ينزويون تحت أنفسهم بأنهم شعب لا يحتاج للآخر في إكمال مسار الحياة في هذا الوجود، فهم أصحاب الأخلاق الفاضلة والثقافة الراقية، بينما سكان الجنوب مثل المهاجرين، يتميزون بالتخلف والعادات السيئة والخرافات الكلاسيكية.

ركز الروائي عمارة لخصوص على المهاجرين الإيطاليين المنحدرين من مدينة نابولي الجنوبية، وذلك للحساسية السياسية الموجودة بينها وبين مدن الشمال 'روما، ميلانو' وامتدت هذه الحساسية إلى المجال الرياضي إلى غاية يومنا هذا (الصراع بين فرق نابولي، ميلانو، روما...). والأكد أنّ الهوية الثقافية لجنوب إيطاليا تختلف كثيرا عنها في الشمال حسب أحداث الرواية، لذلك تُصرّ بوابة العمارة 'بندتا' على الافتخار بهويتها المكانية وانحدارها من سكان الجنوب: "أنا من نابولي، أقولها بصوت مرتفع دون حجل، ثم لماذا أحجل؟ ألم يولد طوطو Toto في نابولي! إنه أكبر ممثل في العالم، فاز بجائزة الأوسكار خمس مرات، أنا من المعجبات بطوطو، لا تفوتني أفلامه التي يعرضها التلفزيون رغم أنّي أحفظها عن ظهر قلب"، فتأكد السيدة الإيطالية على هويتها، هو تأكيد لإثبات الذات والهوية والانتماء.

كما تبرز لنا شخصية 'طوطو' أنّ الثقافة المحلية في الجنوب لا تقل شأنًا عن الشمال، وهذا الممثل خير دليل. ومن جهة أخرى، نستشف من زيادة عدد المهاجرين من الجنوب إلى العاصمة روما، دلالة واضحة على سوء توزيع النفقات والمشاريع من قبل الحكومة الرسمية، وإلا ما السبب الذي يجعل هؤلاء يقومون بالهجرة الداخلية إلى لعاصمة؟

٤. أساليب مواجهة العنصرية وتحقيق التعايش مع الآخر في الرواية:

إذا أراد المهاجرون أن يحققوا الاندماج والتعايش مع الآخر الأوروبي، فلا بد من شروط وضوابط يجب الالتزام بها، كالانسلاخ من الهوية الأصلية، والارتداء الرسمي لعباءة الهوية الثقافية ومكوناتها للبلد المستضيف. والرفض لهذه الأدوات والوسائل، يمنع من حق تأشيرة التعايش والاندماج مع البيئة الجديدة، وهذا ما تجلّى لدى المهاجرين من خلال أحداث الرواية.

أ- اللغة الإيطالية من أجل الاندماج مع الآخر:

تعد اللغة أداة هامة في الحوار والتواصل مع الآخرين، وهي أداة ناجعة في تكوين شخصية الإنسان وهويته الحقيقية، لذاكثر الاهتمام بها في الرواية المهجرية، حيث لجأ أغلب الروائيين لتعلم لغة البلد الذي يهاجرون إليه، وذلك قصد سهولة الاندماج والتأقلم مع الوسط المعيشي. والملاحظ في الرواية أنّ جلّ الشخصيات عجزت في التواصل مع السكان الأصليين لعدم إتقانهم اللغة الإيطالية، حيث اكتشفت هويتهم الوطنية الأصلية وطالت أصابع

اللائام إلهم فف جرمة القتل اللف وقعت فف العمارة؁ بفنما نأء بطل الروافة "أمفءفو" ففققن الفأءء بالفغة الإفطالفة وفعسن الفوافل بها؁ فقد أقق لقب الإنسان الإفطالفف من أفسن إققانه للغة البلد؁ وهذا بشهادة زوفئه "سفففانفامسارو" الفف فشهد بفراعفه واجفهاده وعصامففه منذ الصغر؁ فقول: "أعرف أن أمفءفو ففققن الإفطالفة أأفسن من الإفطالففن؁ الفضل فرجع إلى إراءفه وفضوله.... كان كالرضفء اللف ففغضى من ألفب أمه عدة مراف فف الفوم؁ كان فقرأ بصوف مرففع لفعسن قراءفه ولا ففضافق عنفما كنت أنبهه إلى بعض الأأطأاف فف النطق؁ كان لا فمل من مرافعة القاموس لفهم الكلمات الصعبة؁ كان بالفعل فرضع من الإفطالفة كل فوم" (لأوص؁ ٢٠٠٦؁ الصفأاف ١٢٠-١٢١).

فوفف كل هذه المؤشرات الصرفحة فافقان أمفءفو للغة الإفطالفة؁ والفف اعفبرها ألففه الفومف اللف فرضع منه: "أنا رضفء أأفاج فومفا إلى ألففب؁ اللغة الإفطالفة هف ألففب الفومف" (لأوص؁ ٢٠٠٦؁ صفأة ١٢٥)؁ لهذا دأب على فعلمها منذ أن هاجر من الجزائر؁ فهف سلاأه فف مواءة الآخر؁ ووسفلة أرب أأاف الوطن. كما فهم أمفءفو من هذا "أنّ اللغة هف أداة الفعل الأضارف ووسفلة الفوففن والفشكل الفأاف؁ ففعلم اللغة الإفطالفة لفعقق الفزان فف أفافه الففءفة؁ وفجعل منها سندا شرعفا له لبناء هوفة ما لنفسه؁ فكون مرففطة ارفافا وففقا ففصور أأافف فصل للعام برمفه. ولإثراء لغفه؁ جعل القراءة سففلا فف مواءة الفأففا الفف فعفرض سففله" (أوزة؁ ٢٠١٧؁ صفأة ٢٠٠٧).

وكان هذا الفمكن اللغوف سندا وأصنا منفعا فف مواءة مأفطه الففء؁ فافقان أمفءفو للغة الإفطالفة لفس من أجل الفوافل فأفسب؛ بل من أجل إفاف الفأاف والفأء عن معالم عهد أففء فلفقف ففه الشعوب؁ وففلاق الفأافاف المأففلفة؁ وفعم الأمن والسلام؁ وفزول ففأفة الأنا والآأر؁ وفعرها من الففأفا الفف الضففة الفف عششت كففرا على أنقاض ما بعد الكولونفالفة.

وقد ساعء أمفءفو فف فعلم اللغة الإفطالفة بسهوة عمله السابق فف مأل الترجمة قبل الهجرة إلى إفطالفاف؁ فقد ففأء له الأبواب والطموأاف للفأءء الفأاف؁ وهذا ما أأصل؁ فقول: "الكفف من الناس فعفبرون عملهم عقابا فومفا؁ أما أنا فأأب عملف كمؤرأم كففرا؁ الترجمة هف رحلة مأرفة ممتعة من مرفأ إلى أأر؁ أأفنا أعفبر نفسف مهربا مأفرفا: أعبر أءوء اللغة مأملا بالفأاف من كلمات وأفكار وصور واستعاراف" (لأوص؁ ٢٠٠٦؁ صفأة ١٢٥). فهذا اللف ففألف ففه أمفءفو عن بقفة المهاجرفن أثناء مغامرفهم البأرفة فف قوارب الموف فو الفضاء الآخر؛ فهو فأمل معه لسانه القاءر به على العواء ومواءة الفأفة فف عفر دارها. كما أنّ عمله فف مأل الترجمة ساعءه كففرا على أن فأوب "كل الأفراففا الفأاففة واللغوفة مأملا بالفأاف الكففرة؁ أهمها بناء طرق للأوار والانفأاف على فكرة الفعافش والقبول" (بن على؁ ٢٠١٥؁ صفأة ١٨٢). وهذا ما أأسءه أمفءفو على أرض الواقع من ألال هجرفه إلى الإمبراطورفة الرومانية. من أهة أخرى؁ نأء شأفسفة 'باروفز' المهاجر الإفرافف فعافف كففرا فف روما لعدم إققانه هذه اللغة؁ فقد منعفه هذه المعضلة من إفأاف عمل؁ فكان كففرا ما ففعرض للإهانة والاستهزاء كلما أأل المأاعم الإفطالفة للأء عن عمل ما؛ إذ فقال له "أنف لا فعرف الإفطالفة أو علفك أن فأسن لغفك أولا؁ أو أسف مسفواك اللغوف منأفض أأاف؁

عادة ما أسمع هذه الكلمات المهينة، عندما أبحث عن العمل في المطاعم قبل أن أرمى في المطبخ لغسل الصحون، يبدو أن اللغة الوحيدة التي تتقنها يا عزيزي بارويز هي غسل الصحون" (لخوص، ٢٠٠٦، الصفحات ١٢-١٣).

وبهذا يظهر لنا دور اللغة في تحقيق الانتماء القومي للمهاجرين، وهذا ما جسده شخصيته أميديو البطل الذي حقق لقب الإنسان الإيطالي من حسن تقليده الجيد للإيطاليين. في حين نجد من لا يتقن اللغة الإيطالية ومفرداتها يتعرض كثيرا للسخرية والاستهزاء، وهذا ما عبرت عنه شخصية "بارويز" وكذلك الطالب الهولندي المهاجر "فان مارتن" الذي سافر إلى روما لدراسة السينما، فكان يسيء استخدام بعض المفردات الإيطالية بشكل خاطئ معتقدا بصحة دلالتها، حيث نجد الأستاذ الجامعي "أنطونيو ما ريني يصحح هذا الخطأ المتكرر لهذا الطالب المهاجر "سمعته مرارا يتبجح بلا حياة: قائلا أنا لست جنتيلي! (Io non son GENTILE) في البداية عذرت له لأنه أجنبي... وقلت له بصوت منخفض "لا تنطق هذه الجملة مرة ثانية لأنها تعني باختصار أنك عدس التربية وغير متحضر وبربري" (لخوص، ٢٠٠٦، الصفحات ٨٨-٨٩). وبهذا يظهر أثر الإتقان الجيد للغة الإيطالية وفهم دلالتها الصوتية والنحوية.

ب- التهجين في الاسم:

تعدّ الأسماء من المكونات الأساسية التي تكشف هوية الإنسان وانتمائه الحقيقي، لذا تسهم كثيرا في معرفة الأشخاص وجنسياتهم ومعتقداتهم، خاصة أنّ أسماء المهاجرين في المهجرة تنوع بين العربية والفارسية والأجنبية وغيرها. وما نلاحظه في الرواية أنّ الاسم أدى دورا كبيرا في عملية الاندماج والانصهار في المجتمع الإيطالي باعتباره أحد الأدوات المهمة في التمييز بين الأفراد المهاجرين. وأول ما يقابلنا هو اسم البطل "أميديو" المهاجر الجزائري، والذي أخفى اسمه الحقيقي "أحمد السالمي" لاعتبارات كثيرة منها، رغبته الشديدة في الاندماج مع البيئة الجديدة، وكذلك هروبه من أعباء الذاكرة الماضية إلى فضاء آخر من الفضاء الثالث حسب تعبير هومي بابا، وقد ساعد تغيير الاسم كثيرا في التعايش والتعامل مع السكان الإيطاليين في جميع المعاملات.

ورغم أنّ الاسم نسق ثقافي يعكس الانتماء والقدرة على التعايش مع الآخر كما أسلفنا، إلا أنّ بطل الرواية لم يغير اسمه تماما، ووصف الباحث لونيس بن علي ذلك: "فأحمد لم يغير اسمه، بل خضع اسمه للنسق الصوتي للغة الإيطالية، لأنه الأسهل للنطق، ونكاد نجزم أنه لم يتنكر لأصله، بل على العكس تماما، نجد أن شخصية أميديو كانت نموذجاً للشخصية المتسامحة، المنفتحة على الأخلاق الإنسانية" (بن علي، ٢٠١٥، صفحة ١٧٩)؛ حيث يرى بن علي أنّ بطل الرواية أدخل تغييرا طفيفا على اسمه بسبب تعدّد مناداته الإيطاليين به على النطق الصحيح؛ (Amed) بدون نطق حرف (h).

ومن شخصيات الرواية التي لجأت إلى هجنة الاسم في سبيل التعايش مع المحيط الجديد، شخصي 'إقبال أمير الله' المهاجر من البنغلادش، والذي لجأ إلى تسميته ابنه الرابع "روبرتو" اقتداء بالأسماء الإيطالية بدلا من الأسماء الإسلامية أو العربية، وهذا تجنباً للعراقيل الإدارية التي حدثت له في إيطاليا، ومنها الخلط بين الاسم واللقب؛ إذ سببت له عقبات كثيرة في وثائقه الشخصية، كجواز السفر والحالة المدنية وغير ذلك؛ يقول لأميديو: "لقد قررت أن أسمى

ابني روبرتو، سيكون اسمه الكامل: روبرتو إقبال، إنها الطريقة الوحيدة لتجنب مصيبة الخلط بين الاسم واللقب... ينبغي أن أبذل كل ما في وسعي لأجنب ابني روبرتو هذه المشاكل البيروقراطية" (لخوص، ٢٠٠٦، صفحة ٥٤).

ومثال آخر تمثل في شخصية "محسن" المهاجر "التونسي الذي يعمل في مطعم 'لونا' الواقع في محطة ترميني، اسمه الحقيقي محسن لكن أطلق على نفسه أو أطلقوا عليه اسم ماسيميليانو" (لخوص، ٢٠٠٦، صفحة ١٣٠)، وهذا من أجل تحقيق التواصل، وتجنب الأزمات التي تلاحق المهاجرين؛ حيث نلاحظ أنّ الغربيين يتحسّسون كثيرا من الأسماء العربية والإسلامية، وينظرون إلى أصحابه نظرة ازدراء وحذر.

ومن هنا تظهر المعاناة والمشاكل البيروقراطية التي يعيشها المهاجر خارج وطنه، حتى بات السبيل الوحيد للاندماج والتعايش مع الآخر تغيير الاسم، والتنصل من الهوية الإسلامية والعربية، وما يتعلق بالوطنية والعرق. وهذا أمر في غاية الصعوبة. كما أنّ تغيير الاسم يطرح مسألة أخرى، وهي "كيف تتحول الأسماء التي تحملها الشخصيات إلى معضلة حقيقية في ظل صراع هويات مغايرة ترفض قبول الآخر المغاير اسميا، وبالتالي تتحول الأسماء إلى خيار بين مجموعة من الخيارات الممكنة التي يفرضها واقع ثقافي وحضاري وقيمة اجتماعية وأخلاقية لا معطى عفويا يحصل اعتباريا" (حمداوي، ٢٠٢٠، صفحة ٥٠٨)؛ إذ الاسم هو الذي يعبر عن هويتنا، ويجب عن تساؤل الآخر؛ من نحن؟ ومن نكون؟

ج- العواء سبيل للخروج من الاغتراب النفسي:

إنّ المتأمل في البناء الشكلي للرواية يلاحظ أنّ الأجزاء العشرة للأحداث تنتهي بالعواء المتكرر لبطل الرواية "أميديو"، هذا العواء يحمل بين ثناياه حمولات دلالية تظهر لنا الاغتراب النفسي والمعاناة التي يشعر بها "أميديو"؛ فهذه العواءات المتكررة كشفت "الضغوط عن سيرته المقهورة في ذاكرته المروعة، وهو يسترجع اليوميات عن مشكلات مشاركته في المجتمع الإيطالي، وإشكالية قبوله الصعب رمزا لبقية العرب والمسلمين، مما جعله متأذيا من هذه الضغوط، واستخدم الدُعابة (السخرية المريرة) إزاء العنف الموجه للعرب والمسلمين من غير حق" (أبو هيف، ٢٠٠٨، الصفحات ١٢٢-١٢٣)؛ حيث نستشف من هذه العواءات الظروف المزرية والصعبة التي يعيشها المهاجرون. كما نجد أميديو يخصّص لكل شخصية جزءا من العواء يختتم به حديثها والتعبير عن ظروفها في أرض المنفى.

ويرمز حضور العواء في أحداث الرواية كذلك إلى تعدد الهويات الدينية والعرقية والثقافية الموجودة في إيطاليا؛ فقد حافظ الروائي عمارة لخوص "على حضور رمز الذئبة في كامل النص، بل وجعل هواية البطل أميديو المفضلة هي العواء، وينتهي كل قسم منها بعواء على امتداد أجزائها العشرة التي عنوانها باسم الشخصيات التي تسكن إحدى العمارات في شارع فيتوريو بروما، وميزة هؤلاء السكان أنهم من جنسيات وطبقات ومستويات مختلفة، فهناك المسلم والعربي، والإيراني، والإيطالي، والبنغالي، والمتقف، والمنحرف والجاهل" (بربوة، دت، الصفحات ٣٥٢-٣٥٣)، وهذا ما جسده شخصيات الرواية في العاصمة روما، لذلك لاحظنا صراعات مختلفة بين تلك الأجناس البشرية في العمارة، كالصراع بين المهاجرين والإيطاليين، وبين الإيطاليين أنفسهم (سكان الجنوب مع سكان الشمال)، ولهذا لم تتوقف روما عن العواء والألم الذي يسكن داخلها.

الخاتمة:

- بعد تحليلنا لأحداث الرواية واستكشاف أشكال التمييز العنصري فيها، وصلنا إلى النتائج التالية:
- تعدّ رواية عمارة لخصوص من أبرز الروايات العربية التي تناولت مسألة الهجرة ومعاناة المهاجرين في أوروبا؛ فهي فاتحة سردية للنص الروائي العربي بعد رواية موسم الهجرة إلى الشمال للطيب صالح.
 - استطاع عمارة لخصوص أن يتجاوز المؤلف ويقفز على الجانب التاريخي، ففي روايته ركز على الهوية والهجرة والخروج من بلورة الثنائيات القديمة (المستعمر والمستعمر).
 - عالج الروائي أشكال التمييز العنصري بين المهاجرين والإيطاليين، وبين الإيطاليين أنفسهم، مما يدل على أن هذه الظاهرة ليست لها حدود ولا أماكن معينة، خاصة إذا ما علمنا أنها استنفحلت كثيرا في المجتمع الغربي الذي يدعي العدالة الاجتماعية والمساواة في الحقوق والواجبات بين أبناء البشرية.
 - من أبرز عوامل التمييز العنصري، رفض هوية الآخر (اللغة، الدين، الثقافة، الوطن)، وهذا ما عانت منه الشخصيات المهاجرة من خلال أحداث الرواية.
 - ساعدت هجنة الاسم وإتقان اللغة الإيطالية ومعرفة تاريخ روما على الاندماج والتعايش والانفتاح على ثقافة الآخر، وهذا ما جسده شخصية المهاجر الجزائري "أميديو" الذي استطاع أن يرضع من الذئبة (روما) دون أن تعضه، كما أنها من الشروط التي فرضها الفكر الغربي من أجل تحقيق التسامح والتعايش بين الشرق والغرب.
 - هرب عمارة لخصوص من ضغط الذاكرة المتمثل في العشرية السوداء وأراد مقاومة الآخر ثقافيا.
 - عالج عمارة لخصوص في روايته صراع الحضارات والتقاء الأجناس من مختلف بقاع العالم، ذلك أن الصراع كان ولا يزال - صراعا محتدما حول الهوية الثقافية، وهذا ما تبنته الدراسات ما بعد ما الكولونيالية تحت شعار كيف تأخذ من ثقافة الآخر دون أن تذوب فيها.
 - تصنف رواية 'كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك' ضمن الأدب المهجري، أو أدب المهاجر، كونها عالجت المعاناة والمشاكل التي تعترض المهاجرين أثناء وجودهم في الفضاء الآخر.
 - في الرواية إشارة إلى الكثير من الأصوات المتداخلة السياسية والثقافية والدينية، دون أن ننسى تاريخ الثورة الجزائري، وهذا برهان وحجة على أنّ الرواية هي الجنس الأدبي الأكثر استيعابا لكافة الخطابات الثقافية المتنوعة.

قائمة المراجع:

١. سهيلة بربوة، التصادم الثقافي وصراع الهويات في رواية 'كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك' لعمارة لخصوص . مجلة الناص، جيجل، الجزائر.
٢. سعيدة حمداوي، ورطة الهوية بين جدلية الذاكرة والنسيان، المجلد التاسع، العدد الرابع، مجلة إشكالات في اللغة والأدب، تلمسان، الجزائر، ٢٠٢٠.
٣. طوني بينيت وآخرون، معجم مصطلحات الثقافة والمجتمع، تر، سعيد الغانمي، ط١، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ٢٠١٠.

٤. عمارة لخص، رواية كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك، الجزائر، ط٢، منشورات الاختلاف، الجزائر، الدار العربية للعلوم، ٢٠٠٦.
٥. عبد الرزاق الداوي، موت الإنسان في الخطاب الفلسفي المعاصر، ط١، دار الطليعة، بيروت، ١٩٩٢.
٦. عبد الله أبو هيف، صورة الآخر والحوار بين الحضارات في الرواية العربية، العدد الثالث، مجلة دمشق، ٢٠٠٨.
٧. عبد الكريم قرشي، السلسلة التربوية، مفاهيم نفسية وتربوية، ط١، دار هومة، الجزائر، ٢٠٠٣.
٨. فتحي المسكيني، الهجرة إلى الإنسانية، ط١، منشورات الاختلاف، الجزائر، ٢٠١٠.
٩. لونيس بن علي، الهوية الثقافية من الانغلاق الإيديولوجي إلى الانفتاح الحواري، قراءة في رواية 'كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك لعمارة لخص، العدد الثاني، مجلة تمثلات، تيزي وزو، الجزائر، ٢٠١٥.
١٠. محمد عاشور، التفرقة العنصرية، القاهرة، ط١، مكتبة المهنيين، القاهرة، ١٩٨٦.
١١. محمد عاطف غيث، قاموس علم الاجتماع، ط١، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٨٦.
١٢. منى دوزة، الهوية الثقافية وإشكالية الحوار الحضاري، العدد التاسع، مجلة آفاق للعلوم، الجلفة، الجزائر، ٢٠١٧.